ادبنا القومي

— ٥ —

في الادب العامي

وقد آن لنا ان نورد عليك صدراً من الادب العامي وسنتحرى ، فيه قدراً يسيراً من متخيره . اما تقسيم أنواعه واقامة الحدود لكل منها ، والبحث في اصله ومنجمه ، وكيف درج وكيف سار وكيف تلون ، فذلك كله مما يحتاج الى دراسات طويلة لا احسبها استقرئت او استوت بالتمحيص العلمي الى الآن ، على ان موضوعنا الذي نعالجه اليوم عن هذا في غناء . ويحسبنا ان نقرر محققين ان الادب الذي يدركه اكثر من تسعة وتسعين في المائة من سكان هذه البلاد هو هذا الادب العامي ، وهو الذي يتذوقونه وتستريح به نفوسهم وتتحرك له عواطفهم .

واعلم ان الزجل والموالي مشتقة في الاصل من أوزان الشعر ، وان كانت تنحرف عنها بقدر كبير او صغير ، ثم انها مصبوبة في قوالب عامية او أدنى الى العامية . فكتابتها بالعربية الخالصة او النطق بها كذلك فيه افسادها وإضاعة لأوزانها وإخراج لها عن جميع حدودها . قال صاحب السفينة في الكلام على فن الموالي مانصه : « وهو من الفنون التي لا يلزم فيها مراعاة قوانين العربية بل قال جلال الدين السيوطي انه يجب فيه اللحن ، وعليه فيجوز استعمال الألفاظ الجارية في تخاطب العوام من الناس لفظاً وخطاً معاً ، لانك لو نطقت به حسب التخاطب ، واخذت تكتبه على قوانين الرسم المعتبرة مراعياً للحروف لغيرت وضع ما نطقت به وخالفت حروفه وكسرت وزنه ، وفوّت غرض الناظم عليه من تجنيس او غيره » اهـ .

هذا وللزجل ضروب وأشكال وتقاسيم لا يكاد يدركها الاستقصاء ، وهو على هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كل يوم في ازدياد بما تولد قرائح الزجالين . اما الموالي فتنحصر في أنواع معدودة لا تكاد تعدوها . وليس هنا موضع تفصيلها .

والزجل والموالي كلاهما يعمد فيه الى التماس المحسنات البديعية ، ومنهـا التجنيس ، في الموالي بنوع خاص ، ولقد يبالغ في هذا الى حد التعسف والتلفيق واستكراه الألفاظ ولو أدى ذلك الى استهلاك الاغراض والتدلي الى أسخف المعاني .

ولقد يظهر لك وانت تستعرض الموالي ان اكثر ناظميها انما يدورون باذهانهم قبل كل شيء ليتصيدوا الجناسات من مختلف الألفاظ حتى اذا استوت لهم جعلوا ينظمون من الألفاظ مايفضي اليها وينتهي بها واقعة ماوقعت معانيها . من ذلك قول القائل :

ان زارك البدر بالوعد الذي اوفاه اقبل وقبل خديده ان سمح او فاه
واستغنم الوصل منـه أيسره اوفاه ولا عليك من عذولك ان وشى اوفاه

وقول غيره :

فكري وسهدي وكثر الدمع وصيبه في حب من زاد بالهجران وصبي به
والقلب زاد احتراقه فيـه ولهيبـه لولا يجيني حبيب قلبي يسليني
لاحترق في لظي من كثر ولهي به

وقول الآخر :

اصل اشتباكي مع المحبوب أهدابه لأوهب الروح لمن جابه واهدى به
وحق موسى كليم الله وأصحابه مالي مؤانس بطول الليـل يؤانسني
إلا خياله أنام به الليل واصحا به

وقول الآخر :

بشراك يافلب آدي اللي كنت به موعود
زارك حبيبك وطاب أنسك على ما وعود

ولا تنس قبل كل شيء ان تنطق بالألفاظ عامية ، وتبدل القافات همزات حتى يستقيم لك الكلام .

والى جانب هذا لقد ترى في هذا الادب (البلدي) اشياء تهز وتروع . انظر كيف يقول الموال الصعيدي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا قلب لا كويك بالنـار وان كنت عاشق لأزيدك
يا قلب حملني العـار بتريد من لا يريدك ؟

ويتصل بهذا قول الآخر :

مسكين من يطبخ الفـاس و يريد مرق من حديده
مسكين من يصحب الناس و يريد من لا يريده

ثم تأمل قول القائل :

ما العيش إلا العيش وان كان ناشف بله
والعورة يسترها الخيش فضك من دا كله

أرأيت في شعر الشعراء ونثر النثار ما يعلو على هذا الكلام (فضك من دا كله) ولو قد تعمد أديب ان يشرح هذا المصراع وحده ويدل على ماتحته من دقائق المعاني لاحتاج الى أسطار طويلة ، ثم هيهات له ان يشعرك كل مافيه من حلاوة .

وانظر قول القائل :

خايف اقول له ، يقول له منيه مرعوب خايف
بالله يا قله قللـه حين توردي عالشفايف

وهذا كلام يحتاج الى تفسير يسير فابدل القافات منه اولاً (جيمات) على منطق اهل الصعيد وسائر ريف مصر على التقريب . والناظم يناجي (قلة) الماء ويتخذها الى هواه رسولاً فهو يقول : « انا خائف من ان أقول له فيقول لا ! فانا منه في رعب وخوف سألتك بالله يا (قله) ان تقولي انت له حين تردين على شفتيه . أرأيت ابداعاً في الطلب كهذا الإبداع ؟ هو يطوي اولاً مقول القول ، فلم يسأل (القلة) الا ان تقول ، ولكن تقول ما ذا ؟ هذا ما اخذ نفسه بالأدب عن التصريح به او تركه للذهن الدقيق يفهمه من قوله في غاية الموالي (حين توردي على الشفايف) ! !

وقول القائل (ويروى للمرحوم محمد سلطان باشا) .

اصل البلاوي ما هو انتم وقول العذول كان صايب
شاورت قلبي ما هنتم فراق الأحبة مصايب

وانظر بعد هذا الى ضروب من البلاغة فيما يدعونه بالغناء (المحلاوي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سبع سواقي بتنعي ما طفوا لي نار
يامنية القلب قل لي إزاي عشق الجار
يبقى النظر في النظر والقلب فايد نار

أترى ، بعيشك ، هذا يقل حلاوة او براعة في اعلان الوله عن قول المجنون :

وان مقيمات بمنعرج اللوى لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

وانظر الى قول القائل ايضاً :

طليت ياحلو من شباكك العالي ياهل ترى طلتك للناس ولا لي ؟

وقول القائل :

امانة الله في دي الغيبة افتكرتو ناش ياللي رضيتم بعادنا واحنا مارضيناش
سنتين نستنظر رسول من يمكم ولا جاش والصبر اهوه فرغ والدمع ما بنحاش

وقول غيره :

سافرت وادي اليمن وبعدت عن عيني مثلك ظريف المعاني ما رأت عيني
وان كان غيرك قمر ما ننظره عيني
ياللي انا الورد وانت الماء تسقيني ان غبت دبلتني وان عدت تحييني

وقول الآخر :

يا شمس قبل ان تغيبي خبري اهلي بي انت سبب غربتي عنهم وتعذيبي
خايف يصادفك غمام ياشمس يخلي بي

ولا شك في ان من أحسن ما اثر من الشعر في بلاغة الاشارة قول الشاعر :

فاستبق عينك لا يودي البكاء بها واكفف بوادر دمع منك تستبق
فما الشؤون وان جادت بباقية ولا الدموع على هذا ولا الحدق

* * *

فهل تخلف عنه ناظم هذا (المذهب) :

على الملاح انت لأمير وانا على العشاق كده

وهل تخلف عنهما الشيخ النجار حين يقول (واني لأرويه ولا حياء في العلم) .

ياأهل البلد شفتوش عيلة بالوصف ده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأم والبنت تلدع والواد كده

* * *

والبنت نادت في الجرة يا مسلمين
لا امي ولا أختي حرة واطلع لمين

أرأيت البلاغة البالغة في قوله (والواد كده) ؟ ثم أرأيت كيف أدت كلمة (تلدع) من المعنى ما لا يغني في أدائه لفظ آخر ، وهي للمرأة التي لا هي بالحرة الخالصة ، ولا هي بالبغي الخالصة . بل لقد جرى العرف على انها التي تعيش عيش الحرائر ، ولكنها تتثاب الخنى وقتاً بعد وقت Demi Mondaine كما يقول الفرنسيون . ولذلك ترى لها هنا بنتين وولداً .

ثم انظر بعد ذلك كيف كان هذا الكلام سلساً جارياً على الطبع حتى لكأنك تسمع حقيقة بنتاً تدلي الى الناس بعذرها فيما تتورط فيه من الخروج عن الفضيلة والانحراف عما تقضي به آداب الدنيا وآداب الدين معاً !

وأروي لك شيئاً لا يعجبك اوله ولكن سيبهرك آخره :

الحديد لو انطبع لان وانت ما تلين يامعجباني
انا مستحي وانت غضبان طالت علينا الليالي

ولعل (طالت علينا الليالي) تدعو اليك قول العباس بن الأحنف :

تعالي نجدد دارس العهد بيننا كلانا على طول الجفاء ملوم

ثم كيف ترى في قول القائل :

(الليل أهو طال وعرف الجرح ميعاده) الخ .

ولا يذهب عنك قول القائل :

ساهي الجفون ما كفاك الهجر يا ساهي سهران بتلعب وعن وصل الشجي ساهي

ثم انظر كيف يقول القائل في (طقطوقة) :

يا ست ليه المكابدة مش يكفي قلبي المناهدة
تكايدني ليه حاينوبك ايه
مفيش من النقل فايدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانظر الى قول الآخر في (طقطوقة) ايضاً على لسان جارية تطالع أمها بهواها :

يا حمامه يا أمه عدي المنصورة بجلاجله الفضة وشعور : رة

يا شيلة عيونه يا أمه يا ضني حالي

وقبل ان أفارق هذا الموضع أذكر انني كنت في سياحة نيلية مع شاعر النيل حافظ بك ابراهيم ، وسمع ملاحاً يغني :

والفرش حيران بهم بالليل ما ناموا

فارتج رجة عنيفة من (الفرش حيران بهم) ورأى من فوره ان هذا المعنى البديع ينبغي ان ينظم في شعر العرب فنظم بيته المأثور :

حار الفراش بنا مما نكابده وضاق صدر الليالي عن تشكينا

وبعد ، فقد نلاحظ وخاصة في الموالي ، ان الكلام كثيراً مايعلو فيها الى حد الفتنة ، ثم مايلبث ان يهوي الى الحضيض حتى لايصبح بين أجزائه شيء من التجانس والاتساق . وذلك بالضرورة من اثر ضعف النظام ، فان احدهم لتجيش نفسه بالمعنى الكريم فينفثه ثم ينقطع به النفس فلا يستطيع ان يتم المقال الا بالفصل المتهافت الذي لا يثرامى لغرض ولا يتراءى فيه عاطفة ، اما اذا كان الناظم قوياً فانك وان رأيت بعض أجزاء الكلام يعلو على بعض فان السلامة مكفولة له على كل حال ، وهذا تحسه فيما نظم صبري في هذا الباب وما ينظم شوقي وأضرابهما من أئمة اهل البيان .

ومن الأدب الشائع في العامة (القصص) واكثرها شيوعاً في المدن والقرى على السواء أمثال قصص ابي زيد الهلالي والزناتي خليفة والبردوبل بن راشد الخ . على ان بعض العامة يستريحون بالاستماع الى قصص الف ليلة وليلة ، بل وعنترة بن شداد ، على انه قد شاعت في هذا العصر القصص الجديدة (الروايات) وهي تلقى من الناشئين في التعليم إقبالاً ايما إقبال .

* * *

ومن الوان الأدب التي لم يعن الخاصة — مع الأسف الكثير — بالتماس وسيلة لكتابتها واثباتها مع انها انما تعنى الخاصة وأشباه الخاصة — التطرف او كما يسميه المصريون (بالقفش) وهو قائم على قوة البديهة وسلامة الذوق وسرعة وثوب الذهن الى ملابسات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعنى وطبع الكلام في صورة عجيبة تبعث الطرب وتثير الضحك .

وخير هذا النوع يجري على السن سكان المدن ، اما اهل الريف فلهم تطرف ولكنه مليخ لا طعم له .

وممن أعرف ممن لهم اكبر الحظ في هذا النوع المرحومون الدكتور بكير ، محمد بك البابلي ، محمد رشاد بك ، محمد المويلحي بك ، الدكتور رأفت بك ، خليل خيرالدين بك امام العبد افندي ، وما زال في الاحياء والحمد لله كثير .

وانما أردت (بالوسيلة) لكتابة هذا الادب وتدوينه ، تلك التي تحفظ له رونقه وبهاءه . فانه اذا أثبت بالعربية حال لونه ونضب ماؤه .

ومن آداب العامية النكات البلدية المعروفة (بالقافية) وقد أسلفت عليك انها من توليد مخ الحشاش المصري ، وهي قائمة على التلفيق وحده ، ذلك ان يعمد الرجل الى كلمة مأثورة او جملة معروفة في اي غرض من الأغراض فيسبقها باخرى حتى اذا اتصلت بها حرفتها عن وجهها وأخرجتها الى لون من التطرف مضحك عجيب .

ولقد كان هذا النوع من التطرف شائعاً في الاعراس ، وله رجال يحفظونه ويحذقونه فكان اذا انقطع المغني للاستراحة قام رجلان فتطارحا النكات في شتى المعاني ، حتى اذا غلب احدهما في باب من القول تحول بصاحبه الى باب آخر و يدعى عندهم (قافية) كذا والناس مما يسمعون في ضحك شديد ، وتصفيق حديد .

ثم الامثال العامية وما أدراك ما الامثال العامية ! . حقاً لقد تناولت كل شيء وأصابت كل غرض ، وتدسست الى كل معنى ، فما يكاد يعرض لك رأي او يسمح لك خاطر ، وخاصة في تقرير مبدإ ثابت ، او امر عام واقع ، الا تهيأ لك ان تصل به مثلاً عامياً غاية في الدقة وحسن الاداء .

ولعل العامية في هذا الباب من أغنى لغات العالم .

وهناك ألوان من الادب العامي آخر مما يتغنى فيه العامة و يتناشدون ، ومما يتملحون به و يتفاكهون واني أدع الكلام فيه لمن يريدان يتجرد في حصر أنواع الأدب العامي وضبطها ، والابانة عن حدودها واصلها وتصرفها على الزمان .

و بلغ القول بعد هذا ان من ينفي عن (ادبنا القومي) كل هذ الادب الذي تعيش

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

به لامة كلها على جهة التقريب ، ويزعم انه محصور في الادب العربي الخالص (الشعر والنثر الفني) وهذا ما لا يدركه الا القليلون ، ولا يتذوقه الا الأفلون — فذلك احد رحلين : رجل لا يعرف الأدب ، او رجل لا يعرف مصر .

« باحث »